سياسة الأيوبيين الزراعية في بلاد الشام

د . محمد صديق حسن (*)

هذا البحث محاولة لدراسة الواقع في بلاد الشام تحت ظل الدولة الأيوبية التي قامت بعد وفاة الملك العادل نور الدين محمود (569هـ/ 1173م) على يد مؤسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب في مصر والشام، ويهدف البحث أيضا إلى معرفة قدرات الدولة الاقتصادية وكيف تمكنت من معالجة التدهور الزراعي النسبي الذي سبق قيامها على اثر قيام الحروب الصليبية [1]، التي اجتاحت مناطق شاملة في بلاد الشام وخلّفت الكثير من الآثار السلبية على الأراضي الزراعية والإنتاج الزراعي من تلف للمزروعات وقطع للأشجار المثمرة على اثر التحصن في البساتين ونشوب الحرائق المدمرة أثناء المعارك والمواجهات العسكرية بين الجانبين من القوات الإسلامية والصليبية وتسبب في خراب مناطق كثيرة مما اضطر الكثير من الفلاحين والقرويين إلى ترك أراضيهم وقراهم والنزوح إلى المدن حيث يجدون العمل في أية حرفة تجلب لهم ما يعيشون به [2]، كما جرت خلال الحروب المذكورة أعمال نهب وسلب للقرى والأرياف خلال زحف الجيوش وأثناء المعارك والقتال مما أدى إلى تدهور الإنتاج الزراعي.

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة الموصل.

(1) أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي أحمد، (القاهرة 1956م)، ج1، ص 135-136.

(2) ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، (دمشق 1951م)، ج2، ص 173.

وعلى الرغم من الانتعاش المؤقت الذي شهدته الزراعة في بعض المناطق من بلاد الشام في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي إلا أن الآثار السلبية للحروب الصليبية كانت على المدى البعيد كارثة على الاقتصاد، ولاسيما على الزراعة والإنتاج الزراعي في بلاد الشام حيث جعلت الأرض خراباً [3]، فضلا عن أن النظام الإقطاعي العسكري الذي قام على أساس الأرض الزراعية قد هبط بأحوال الفلاحين إلى مستويات متدنية[4].

وقد توفرت في بلاد الشام المقومات الأساسية للزراعة، إذ تمتاز تربتها بخصوبة عالية وتوفر كميات من الأمطار الشتوية مع وجود مصادر المياه السطحية المتمثلة بالعديد من الأنهار والجداول من سهول خصبة وجبال ووديان، وتشمل رقعة من الأراضي الصالحة للزراعة والتي كانت تزرع في أراضيها مختلف المزروعات.

وتبعاً لما أشرنا إليه من توافر بيئة زراعية ملائمة في الشام اصبح معظم سكانها ومنذ القدم يعملون في الزراعة حتى أمتلك الكثير منهم البساتين المزروعة وكانوا يعملون فيها بأنفسهم وبلاد الشام تضم أراضي واسعة من سهول خصبة وجبال ووديان، وتشمل رقعة من الأراضي الصالحة للزراعة.

ولمعرفة الواقع الزراعي في بلاد الشام في العصر الأيوبي، أو بالأحرى خلال القرن السادس الهجري لابد من التعرف على نبذة مختصرة عن جغرافية بلاد الشام التي تمتد طولا من الشمال والى الجنوب من الفرات إلى العريش

(3) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكتاني، رحلة ابن جبير، (بيروت 1384هـ / 1964م)، ص 233.
(4) قاسم، عبدة قاسم، ماهية الحروب الصليبية، (الكويت 1990م)، ص 213.

جنوبا[5]، ومن الشرق البادية وجبل طي والى بحر الروم غرباً[6]، وتعد معان آخر بلاد الشام مع أراضي الحجاز[7]. أما من الشمال فحدود الروم من بالس إلى الفرات والى طرطوس[8].

ومناخ بلاد الشام عامة مناخ البحر المتوسط والذي يعرف ببحر الروم في الحقبة التي نتحدث عنها بارد ممطر شتاء وحار جاف صيفا وأمطارها كثيرة حسب المنخفضات الجوية، إلا انها غير متساوية من منطقة إلى أخرى، فهي في المناطق الجبلية والسهول الساحلية اكثر مما هي في الداخل[9].

وتعتمد بلاد الشام عامة في زراعتها على مياه الأمطار، حيث أن الدورات الزراعية الشامية وحراثة الأرض قائمة على نزول الغيث وسقوط الأمطار [10]، وخاصة في أراضي فلسطين[11].

(5) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 1407هـ/ 1987م، ج4، ص 74-75.

(6) الحموي، ياقوت شهاب الدين أبي عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت 626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1957، ج3، ص 312؛ البغدادي، ابن عبدالحق صفي الدين عبد المؤمن، مراصد الإطلاق على أسماء الأمكنة والبقاع، مطبعة بريل ليدن، 1864، ج2، ص 75.

(7) ابن بطوطة، شرف الدين الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، دار التراث، 1388هـ/1968م، ج1، ص 68.

(8) أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل علي بن محمود بن محمد، تقويم البلدان، باريس، دار الطباعة السلطانية، 1840، ص 225؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص78.

(9) عبدالسلام، عادل، جغرافية سورية "طبيعية بشرية اقتصادية" دمشق، 1973، ج1، ص242.

(10) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1935، ج8، ص 255-256.

(11) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 104؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 227.

وإن الزراعة أيضا في بلاد الشام تقوم على مياه الأنهار والينابيع والعيون والقنوات ومن أهم انهار بلاد الشام التي كان لها أهمية وفائدة كبيرة في الزراعة وريّها نهر العاصي و "هذا النهر عظيم وعليه جسور يعبر عليها وعليه نواعير كثيرة تخرج إلى ما على جانبيه غيطان المدينة" (12)، وهو نهر مدينة حماة عليه نواعير كالأفلاك الدائرة (13)، ويسمى نهر الرستن (14)، وسمي أيضا نهر المقلوب(15)، إضافة إلى روافده العديدة(16)، وكذلك نهر بردى الذي يسقي بساتين منطقة الغوطة المشهورة بالكثافة الزراعية في بلاد الشام(17)، ومن الأنهار المهمة أيضا نهر الأردن، ومن أهم روافده نهر اليرموك (18)، وكذلك انهار أخرى مثل بانياس والزرقاء تسقي أراضي منطقة غور الأردن (19)، إضافة إلى انهار عديدة في مختلف بقاع الشام. وإضافة إلى الانهار، فقد قامت الزراعة الشامية على مياه الينابيع والعيون والقنوات، ولا سيما في منطقة حلب إذ يقول ياقوت الحموي "فيها قنوات ومصانع تصل إلى الماء المعين وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب قد اعتنى بها كثيراً" (20)، وكذلك في دمشق المشهورة بالقنوات وفي مناطق ملطية

(12) الحميري، أبو عبدالله محمد بن أبي عبدالله، الروض المعطار في خبر الأقطار، لبنان، بيروت، 1975، ص199.

(13) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص38.

(14) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص403؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص83.

(15) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 249؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، ج2، ص910.

(16) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 84.

(17) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 98.

(18) شيح الربوة، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البحر والبحر، لايبزك 1923، أوفسيت مكتبة المثنى، بغداد، ص 115.

(19) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص 137.

(20) معجم البلدان، ج2، ص 285-286.

وبيروت[21]، وقد وسعت قناة في مدينة حلب كانت تستخدم مياهها في الزراعة وذلك في سنة 615هـ[22].

وتمتاز بلاد الشام بسهولها الخصبة وتحديد الشمالية منها وحتى غزة جنوباً [23]، فضلاً عن السهول الداخلية كسهل العمق والروج والغاب وسهول حمص وحماة والبقاع وسهل وادي الأردن الغربي [24]، ووادي موسى المشهور بكثرة الزيتون[25].

ولا يفوتنا ذكر المناطق الجبلية، ولا سيما جبال القدس و أراضيه والخليل المشهورة بالفواكه و أشجار التين والزيتون والعنب والعسل[26]، ويقول ابن شداد: "وإذا كانت الدنيا في بلاء وقحط كان الشام في رخاء وعافية وإذا كانت الشام في بلاء وقحط كانت فلسطين في رخاء وعافية"[27]، فضلا عن شهرة أراضي جنوب بلاد الشام[28].

(21) معجم البلدان، ج2، ص 463؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 265، 271؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 127.

(22) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، الطبعة الأولى، دمشق، 1953، ج1، ص142.

(23) محمد كرد علي، خطط الشام، الطبعة الثانية، نشر دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1391هـ/ 1971، ج4، ص140.

(24) عبدالسلام، عادل، جغرافية سوريا، دمشق، 1973، ج1، ص132-135.

(25) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص 346.

(26) كي، لسترانج، فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة: محمود عمايرة، الطبعة الاولى، المطابع، التعاونية، عمان، 1970، ص 97.

(27) الأعلاق الخطيرة، ج1، ص 189.

(28) القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص 239؛ ج4، 157.

أما طرق الزراعة في بلاد الشام فكان المتبع نظام تبوير الأرض وفي القرنين السادس والسابع الهجريين كان الفلاح يقسّم الأرض التي بحوزته شطرين "فيزرع شطراً ويريح شطراً ويتعاهده بالحرث لتقرع الشمس باطن الأرض ثم يزرعه في القابل ويريح الشطر الذي كان به الزرع وهذا دأبهم"[29]، ويسمى القسم المتروك الكراب أو الأحمر[30].

ومن الطرق الزراعية المتبعة طريقة تسميد الأرض باستعمال الأسمدة المختلفة التي تصلح للزراعة وتزيد من الإنتاج[31].

أما من حيث نظام ري الأراضي الزراعية فيبدو أنه لم تكن في بلاد الشام سدود أو خزانات لجمع المياه واستخدامها في الزراعة، ولذلك يمكن القول بأن الزراعة الشامية كانت معتمدة بالدرجة الأولى على مياه الأمطار، أي الزراعة الديمية وعلى الإرواء بواسطة مياه الأنهار والعيون والينابيع والقنوات والنهيرات المتفرعة من الأنهار الكبيرة[32].

أولى الملوك والأمراء الأيوبيين اهتماماً كبيراً بالأراضي الزراعية وتنوع مصادرها في منطقة الشوبك والكرك في بلاد الشام ما ذكره القلقشندي بقوله عن الشوبك والكرك: "كانت بأيدي الفرنج مع الكرك وفتحت بفتحها واقطعها السلطان صلاح الدين مع الكرك لأخيه العادل فأعطاهما لابنه المعظم عيسى فاعتنى

(29) النويري، نهاية الارب في فنون الأدب، ج8، ص 256.

(30) نفس المصدر، ج2، ص257.

(31) ابن وحشية، أبو بكر أحمد بن علي ب قيس (ت 296هـ/ 909م) الفلاحة النيطية، نسخة مصورة في مكتبة المجتمع العلمي العراقي، ص 184، 186.

(32) شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجاب البر والبحر، ص 198.

بأمرهما وجلب إلى الشوبك غرائب الأشجار حتى تركها تضاهي دمشق في بساتينها وتدفق أنهارها وتزيد بطيب مائها"[33].

وفي فترة الحكم الأيوبي لبلاد الشام ومصر زاد الاهتمام بحيازة الأراضي الزراعية بشكل اقطاعات كمنطقة الغور التي أصبحت اقطاعات خاصة بالأمراء والسلاطين، فقد كان معظم الغور الشمالي إقطاعا للناصر داؤد وأبنائه من ذلك الغور الأمجدي المنسوب إلى الملك الأمجد مجد الدين حسن بن الملك العادل وثم آل إلى أبناء الملك الناصر داؤد بالإرث عن والدتهم ابنه الملك الأمجد المذكور[34].

ومن هذه الأملاك أيضا غور ناعمة نسبة لقرية الناعمة التي كانت ملكاً للأمير الظاهر شاذي بن الملك الناصر داؤد الذي توفي سنة 681هـ / 1282م ودفن في القدس[35]، ويبدو أن الدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين سار على نهج الدولة الزنكية والتي هي بدورها اتبعت نظام الإقطاع السلجوقي، حيث يقول أ. اشتور: "والدولة الأيوبية التي بناها صلاح الدين (1169-1193م) والتي أعقبت دولة نور الدين محمود كالإمبراطورية السلجوقية اتحاد إمارات شبه مستقلة ونظامها الإقطاعي شبيه بالنظام السلجوقي"[36].

---

(33) القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص 162-163.

(34) اليونيني، الشيخ قطب الدين موسى بن محمد، ذيل مرآة الزمان، ط1، المطبعة العثمانية، حيدر آباد الدكن، 1380 هت/ 1960م، ج4، ص 172.

(35) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص 172، ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم، تاريخ ابن الفرات، البصرة، 1967، ج7، ص256.

(36) أ. أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبدالهادي عبلة، نشر دار قتيبة، دمشق، 1985، ص 300.

حيث كان الإقطاع لدى الأيوبيين وراثياً ويبدو أن الاتجاه للوراثة كان مألوفاً

منذ عهد نور الدين الزنكي (1146-1173م) فأبقى الاقطاعات الوراثية وارتكز على الإقطاع العسكري في الزراعة وملكية الأراضي الزراعة [37]، "ولذلك فإن إقامة صلاح الدين للنظام الإقطاعي لم يكن خروجاً عن النظام الاجتماعي القائم، غير أن اعتلاؤه للسلطة أعطى هذا التطور دفعة قوية إلى الأمام" [38]، بيد أن أهم التطورات في التنظيم الإقطاعي في عهد صلاح الدين الأيوبي هو أن العلاقة الإقطاعية ارتبطت بالسلطان باعتباره المسؤول عن جميع الأمراء الإقطاعيين، حيث خصص الأيوبيون غالباً لجيشهم الاقطاعات التي تتألف من أجزاء من الضياع القائمة في مناطق مختلفة لمنع الإقطاعيين من تكون الاتباع في مناطقهم [39] وصار السلطان الأيوبي يعبئ الجيش لكي يقوده بنفسه في ميدان القتال. فقد كان من حقه عزل أي أمير عن اقطاعه إذا تخلف عن أداء واجباته العسكرية في الجهاد ضد الصليبيين وكانت هذه الطريقة وسيلة جيدة في الجهاد ومحاربة الصليبيين وتميزت الاقطاعات الأيوبية بخاصية التوريث والطبيعة الانتقالية كما كان معتادا لدى الدولة الزنكية، ونظراً لتوريث الاقطاعات فقد حارب الفرسان بشجاعة لأنهم يدافعون عن ممتلكاتهم الإقطاعية وحقوقهم المطلقة واتبع صلاح الدين نفس المبدأ حتى أنه جعل الاقطاعات وراثية[40]. وكانت هذه الطريقة

(37) الدوري، عبدالعزيز، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، الطبعة الثانية، بيروت، 1982، ص 104.

(38) أ. أشتور، المصدر نفسه، ص 301.

(39) المصدر نفسه، ص 301.

(40) أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص 8؛ أ. أشتور، التاريخ، ص 302.

أيضا خير وسيلة لحكام سيطرة السلطان على الأمراء التابعين له تحت وطأة العزل والحرمان من الإقطاع[41].

وقد سار السلاطين الأيوبيون بالتنظيم الإقطاعي العسكري خطوة أبعد في سبيل جعله أكثر قدرة على متطلبات التطورات العسكرية ومواجهة ضرورات الحرب ضد الصليبيين وخلال العصر الأيوبي الذي امتد أكثر من قرن من الزمن جرت على النظام الإقطاعي العسكري عدة تطورات هامة أوصلته إلى شكله الناضج والنهائي في عصر سلاطين المماليك فيما بعد، الذين اعتمدوا على المؤسسات نفسها التي ورثوها عن الأيوبيين ومن بينها التنظيم الإقطاعي العسكري للدولة بطبيعة الحال[42].

والجدير بالذكر أن الأمراء الأيوبيين شجعوا الزراعة والتي ازدهرت بصورة ملحوظة، حيث أن استقرار الحكم الأيوبي والاتساع البارز في ميادين الفكر والذي شهد نقلة نوعية إلى حد كبير بفضل السياسة المستنيرة التي انتهجها السلاطين والأمراء في تشجيع التطور الزراعي والاقتصادي"[43].

وبغية تسديد نفقات الجيوش اتبع الأمراء الأيوبيين نظام الإقطاع العسكري الذي استوحي من الأنظمة السلجوقية وأدخل عليه بعض التعديلات التي اقتضتها الظروف المستجدة في أيامه من حيث الإدارة والنظم المالية وغيرها، وإذا نظرنا إلى الدولة الأيوبية نجد أنها "قد أصبحت أشبه بإمبراطورية تضم عدداً من الدول

(41) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر: زيادة، القاهرة، 1948، ج1، ص82.

(42) قاسم، عبده، ماهية الحروب الصليبية، الكويت، 1990، ص 196.

(43) جب، هاملتون، صلاح الدين الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973، ص 204.

يربطها بالسلطان نظام الإقطاع العسكري الذي تطور أيام السلاجقة و أدخلت عليه تعديلات كبيرة، وقد ورث صلاح الدين هذا النظام"[44].

وبهذه التعديلات اصبح نظام الأيوبيين مشجعاً للزراعة في الشام اكثر من بقية الأنظمة التي كانت سائدة آنذاك في المنطقة، فالإقطاعي اصبح مسؤولاً عن "صيانة السدود وأقنية الري والجسور والطرق، وعليه أن يضمن الاقطاعة المخصصة له مزروعة بشكل مناسب[45]، اذو قام الإقطاعيون بالإشراف المباشر على المقاطعة الزراعية وعلى عمليات الزرع والحصاد ، وهذا أدى إلى تحسين أحوال الفلاحين الاجتماعية، فلم يتحول الفلاحون إلى ارقاء كما حدث في العصور اللاحقة. وبذل السلطان الملك الكامل (1218-1236) جهوداً كبيرة لزيادة الإنتاج الزراعي في مصر[46]، وقياساً على ذلك زاد الإنتاج الزراعي في بلاد الشام أيضا. إذ أن الملك العادل كان يشرف شخصياً على صيانة السدود.

ومن المرجح أن عهد الأيوبيين شهد فترة ازدهار في الزراعة في الديار الشامية، إذ أن أفراد القبائل البدوية التي هاجرت إلى أواسط فلسطين في نهاية الأيوبي اصبحوا فلاحين[47].

فقد اتبع صلاح الدين نهج نور الدين محمود الذي كان له نظرته الخاصة إلى الإقطاع حيث يقول: "إذا كانت البلاد لنا فأي حاجة بكم إلى الأملاك فإن

(44) زكار سهيل، تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل البعث وحتى سقوط بغداد، دار الفكر دمشق، 1975، ص 293.

(45) أ. أشتور، التاريخ، ص 303.

(46) أ. أشتور، المرجع نفسه، ص 303.

(47) أ. أشتور، نفسه، ص 303.

الاقطاعات تغني عنها وإن خرجت البلاد من أيدينا فإن الأملاك تذهب معها ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليها وغصبوها أملاكها"[48].

وقد ورد في النصوص التاريخية أن الملك العادل أخو صلاح الدين طلب من السلطان صلاح الدين مرة أن يملكه أخوه صلاح الدين نواحي حلب ويكتب له لها كتاباً وكأنه بيع وشراء فامتنع صلاح الدين وقال: "إنما تكون إقطاعاً والبلاد لأهلها والمرابطين فيها ونحن خزنة المسلمين دعاة الدين"[49]، وعندما عزم صلاح الدين على تقسيم أملاك دولته بين أبنائه و أهل بيته جعل التقسيم على أسس إقطاعية[50]، وكذلك حصر الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين الاقطاعات في أولاده وغدت البلاد كلها اقطاعات عسكرية، حيث أنه بعد وفاة نور الدين الزنكي سنة 569هـ/ 1173م تفرقت كلمة الأمراء النوريين في الشام فاستولى صلاح الدين على دمشق ثم زحف على حمص فضمها إليه واقطعها لابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه[51]، فضلاً عن إقطاع الرحبة الذي كان بيده [52]، وبعد الاستيلاء

(48) سيد الأهل، عبدالعزيز، ايام صلاح الدين، الطبعة الأولى، المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر، 1964، ص45.

(49) سيد الأهل، أيام صلاح الدين، ص 45-46.

(50) الأثير، عزالدين ابن الأثير أبي الحسن علي بن أبي كرم محمد الشيباني (ت 630هـ)، الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر، بيروت، 1966، ج11، ص 516-517؛ ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي القرشي، البداية والنهاية، طبعة جديدة، بيروت، 1977، ج13، ص6.

(51) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص 517-518.

(52) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج1، ص250.

على حماة أقطعها لخاله شهاب الدين محمود الحارمي [53]، ففي سنة 574هـ/ 1178م أقطعت لتقي الدين عمر الذي جنّد العساكر وأعّد العدة لمواجهة أي خطر صليبي ولما حضر تورانشاه إلى الشام قادماً من اليمن طلب من أخيه صلاح الدين في سنة 574هـ/ 1178م أن يقطعه بعبك وتسلمها [54]. وفي سنة 582هـ/ 1186م أقطع صلاح الدين دمشق لابنه الأفضل علي[55].

وقد اعتمد السلاطين الأيوبيون على عدد من القادة العسكريين الذين اسهموا في توطيد الحكم الأيوبي وأبلوا في قتال الصليبيين بلاءً حسناً فاستحقوا تقديرهم فاغدقوا عليهم الأموال وأقطعوهم الأراضي والضياع، وهناك حالات كثيرة ذكرها المؤرخون لا مجال لذكرها وتعدادها[56].

وقد توخى صلاح الدين من تطبيق النظام الإقطاعي العسكري إقامة العدل وإزاحة الظلم والجور ولذلك تشدد أبناء البيت الأيوبي في الإشراف على المقطعين ومحاسبتهم وسعوا إلى الحد من ظلم الفلاحين ورفع الحيف عنهم مما حمل هؤلاء إلى التمسك بالأرض الزراعية وعدم تركها[57].

كما حددت الدولة الأيوبية الإيجارات والرسوم التي يدفعها الفلاح لسيده الإقطاعي وقد نصت التوقيعات السلطانية على المقطعين باتباع العدل والأمر

(53) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي، تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 1391هـ/1971م، ج5، ص290.

(54) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج5، ص293.

(55) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص82؛ أبو المحاسن، ابن تغري بردي، جمال الدين بن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية (د. ت)، ج6، ص 113.

(56) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص137.

(57) ربيع، حسنين محمد، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، 1964، ص 334.

بالمعروف وعدم قبول الرشوة من الناس والمحافظة على الإقطاع وعمارته من جميع النواحي والاعتناء بالري وحسن إدارة الإقطاعية[58]، والتزام الفلاحين القيام بالإعمال المطلوبة منهم خير قيام كالاعتناء بالأرض وتهيئتها للزراعة وذلك من أعمال الحراثة للأرض وزراعتها وسقيها وتعهد المزروعات وجمع الغلال والمحاصيل في مواسمها وحسن تخزينها وأن تسود المحبة والتفاهم مع سادتهم وإمعانا في تعميم العدالة الاجتماعية وضمانا لحقوق الجميع من سادة إقطاعيين وفلاحين على السواء وهذه ميزة انفرد بها النظام الإقطاعي العسكري في العصر الأيوبي عن الأنظمة التي سبقته[59].

ويبدو أن صلاح الدين الذي كان يرى ضرورة عملية إعادة النظر في التوزيع الإقطاعي فقام بنفسه كما وصف ذلك القاضي الفاضل في متجدداته لشهر رجب من سنة 577هـ/ 1181م[60]، وشرع السلطان في سنة 581هـ/ 1185م في "إقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد" [61]، ولهذا فإن الدولة الأيوبية قامت بحماية الفلاحين من أسيادهم الإقطاعيين مادياً ومعنوياً كما حدّت من ثراء الإقطاعيين على حساب الآخرين[62].

(58) القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص 33-34.

(59) أ. أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص 303.

(60) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، إصدار: دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة 1967، ج1، ص 86-87.

(61) أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص62.

(62) سعيد، عاشور عبدالفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، بيروت 1972، ص 128.

أما بخصوص العلاقات الزراعية وحيازة الأرض الزراعية فإن نظام الإقطاع العسكري ظلَّ مستمرا طوال فترة الدولة الأيوبية[63].

وأهم المحاصيل الزراعية التي كانت تزرع في بلاد الشام خلال فترة البحث هي المحاصيل التي اشتهرت بها بلاد الشام قديماً وذلك كالحنطة والشعير وهي الحبوب المهمة من الناحية الغذائية للسكان، وقد ذكر النويري المحاصيل الزراعية في بلاد الشام بشكل مسهب وهي باختصار القمح والشعير والشوفان والفول والحمص والعدس وغيرها كثير من المحاصيل الشتوية. أما المحاصيل الصيفية فهي الذرة والسمسم والدخن وحتى القطن والقنب[64].

وكذلك زرعت في بلاد الشام أنواع كثيرة من البقول والخضار [65]، ولكثرة وتعدد أنواعها لا مجال لذكرها بالتفصيل في هذا المجال ومنها الخس والثوم والبصل والخيار وكافة أنواع الفواكه والخضراوات الحقلية[66].

أما الأشجار المثمرة فإن بلاد الشام اشتهرت بأكثر الأشجار شهرة هي أشجار التين والزيتون[67]، وكذلك أشجار العنب بأنواعها[68].

(63) حتي، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، 1972، ج2، ص263.

(64) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج8، ص 257-258.

(65) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 87.

(66) وللمزيد من المعلومات عن أنواع النباتات، ينظر: أبو البقاء عبدالله البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، نشر: دار الرائد العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1400هـ/ 1980م، ص 176-184.

(67) ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن الحسين، تهذيب تاريخ دمشق، تهذيب: عبدالقادر بدران، دار المسيرة، بيروت، 1979، ج1، ص 47؛ حتي فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج1، ص27.

(68) كرد علي، خطط الشام، ج4، ص198.

وقد وصفت بلاد الشام بأنها بلاد الفواكه والأعناب [69]، وتنشر زراعة الزيتون في جميع بقاع الشام وخاصة منطقة نابلس [70]، وكذلك في منطقة حلب وإنطاكية ومناطق من فلسطين[71].

والى جانب الزيتون انتشرت زراعة التين والعنب، إذ يذكر ابن جبير في رحلته واصفاً منطقة معرة النعمان من بلاد الشام: "سواد كلها شجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف البساتين وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من اخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً" [72]. وكذلك اشتهرت مناطق من بلاد الشام بالرمان[73] والنخيل والموز وخاصة منطقة الغور[74].

وإذا نظرنا إلى كتاب أبي البقاء لوجدنا أن بلاد الشام تنتشر فيها جميع أشجار الفواكه من التوت واللوزيات كالمشمش والجوز واللوز والفستق وغيرها كثير[75]، لا يمكن عدّها وحصرها وتصنيفها في هذا البحث الموجز، وقد وصف الرحالة ابن جبير غوطة دمشق بقوله: "تجلت بأزاهير الرياحين وتجلت في جبال سندسية من البساتين"[76]، وكذلك من محاسن بلاد الشام وأراضيها كثيرة الزهور

(69) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص16.

(70) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص35.

(71) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص567.

(72) ابن جبير، الرحلة، ص229؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص126.

(73) أبو البقاء، نزهة الأنام، ص128.

(74) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج 1، ص527؛ خسرو، ناصر، أبو معين الدين ناصر، صفر نامة، ترجمة: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1970، ص12.

(75) أبو البقاء، نزهة الأنام، ص 124-126، 185.

(76) ابن جبير، الرحلة، ص 248؛ ابن بطوطة، الرحلة، ص 814.

والرياحين والتي يستخرج منها ماء الورد والروائح الطيبة وأكثرها من تحدث عنها أبو البقاء الدمشقي فذكر أنواع الورود والأزهار والرياحين في دمشق وضواحيها ومناطق عديدة أخرى من بلاد الشام [77]، فضلاً عن زراعة قصب السكر ولا سيما في المناطق الساحلية من مدن طرابلس وبيروت[78].

(77) أبو البقاء، نزهة الأنام، ص60-107.

(78) التويري، نهاية الأرب، ج8، ص271.

Abstract

Ayubi Agricultural Policy in Syn'e

Dr. Muhammad S. Hassan [*]

The present research aims at studying the agricultural situatum under the Ayuubi state which was established in the 6 Th century AH /12 Th century, and understanding Its economic abilities and the ways the relative deterioration of agriculture that preceded its foundation as a result of the crusade wars went tackled. the crusade wars that prevailed Belad al sham was in the leng run - a - catastrophe on the economy in gereral and agricultural and agricultural product in particlar .

Furthermore, the military feudal system that was founded on the basin of agriculture Land led the peasants conditions to very low levels. yet, the development of the feudal system in the era of the Ayuubi state especially succession and the transitional nature as the bent means to encourage the knights to defend their feudal property and control the princes related to the states in addition to the exploitation of the land fully, increasing the agricultural product and the development of agriculture.

(*) College of Arts / University of Mosul.